رحمة الله تبارك وتعالى والتوازن بين الخوف والرجاء

د. جمال المراكبي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

رواه البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة؛ فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة؛ فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار». رواه البخاري كتاب الرقاق.

وعن عمر بن الخطاب قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال صلى الله عليه وسلم: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها". رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وعن أنس قال: مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأناس من أصحابه وصبيٌّ بين ظهرانَي الطريق، فلما رأتْ أمُّه الدوابَّ خشيتْ على ابنها أن يُوطأ فسعتْ والهة فقالتْ: ابني ابني فاحتملت ابنها.

Upload by : altawhedmag.com

فقال: القومُ يا نبيَّ الله ما كانت هذه لتُلقي ابنَها في النار. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لا والله لا يُلقي اللهُ حبيبَه في النار». أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى والحاكم وذكره الحافظ في الفتح وصححه الألباني.

في الرواية الأولى: جعل الله الرحمة مائة جزء.

وفي الثانية: إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة.

ولمسلم من رواية عطاء عن أبي هريرة: إن لله مائة رحمة.

وله من حديث سلمان: إن الله خلق مائة رحمة يوم خلق السماوات والأرض. كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض. وقوله: كل رحمة تسع طباق ما بين السماء والأرض. المراد بها التعظيم والتكثير.

وقد ورد التعظيم بهذا اللفظ في اللغة والشرع كثيرًا.

قوله: (فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا)

في رواية عطاء: وأخر عنده تسعة وتسعين رحمة.

وفي رواية العلاء بن عبد الرحمن عند مسلم: وخبأ عنده مائة إلا واحدة.

قوله: (وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا)

في رواية المقبري: وأرسل في خلقه كلهم رحمة.

وفي رواية عطاء: أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والأنس والبهائم.

وفي حديث سلمان: فجعل منها في الأرض واحدة.

قوله: (فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه).

في رواية عطاء: "فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها".

وفي حديث سلمان: فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض.

قال ابن أبي جمرة: خص الفرس بالذكر لأنها أشد الحيوان المألوف الذي يعاين المخاطبون حركته مع ولده، ولما في الفرس من الخفة والسرعة في التنقل، ومع ذلك تتجنب أن يصل الضرر منها إلى ولدها.

ووقع في رواية مسلم زيادة: "فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة"؛ وفيه إشارة إلى أن الرحمة التي في الدنيا بين الخلق تكون فيهم يوم القيامة يتراحمون بها أيضًا.

وصرح بذلك المهلب فقال: الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون بها يوم القيامة التبعات بينهم.

قال: ويجوز أن يستعمل الله تلك الرحمة فيهم فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفًا بها؛ فهي التي يرحمهم بها زائدًا على الرحمة التي خلقها لهم.

قال ابن حجر: وحاصل كلامه أن الرحمة رحمتان: رحمة من صفة الذات وهي لا تتعدد. ورحمة من صفة الفعل وهي المشار إليها هنا.

ولكن ليس في شيء من طرق الحديث أن التي عند الله رحمة واحدة؛ بل اتفقت جميع الطرق على أن عنده تسعة وتسعين رحمة.

وزاد في حديث سلمان أنه يكملها يوم القيامة مائة بالرحمة التي في الدنيا. فتعدد الرحمة بالنسبة للخلق.

وقال ابن أبي جمرة: ثبت أن نار الآخرة تفضل نار الدنيا بتسع وستين جزءًا؛ فإذا قوبل كل جزء برحمة زادت الرحمات ثلاثين جزءًا، فيؤخذ منه أن الرحمة في الآخرة أكثر من النقمة فيها.

ويؤيده قوله: "غلبت رحمتي غضبي". (انتهى بتصرف من فتح الباري).

وجاء في الرواية الثانية: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد".

Upload by : altawhedmag.com

يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن حقيقتين:

أولًا: حقيقة عقوبة الله للمؤمن العاصي:

لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد. المعنى: لو اطلع المؤمن على حقيقة وعظم العقوبة التي أعدها الله للمعاصي والذنوب لشغله الخوف والهلع عن الطمع في الجنة؛ لأنه سيدرك هول ما جناه على نفسه بمعصيته.

ثانيًا: حقيقة رحمة الله للكافر لو تاب: ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد.

المعنى: ولو اطلع الكافر على سعة رحمة الله ومغفرته، لما قنط أو يئس من رحمة الله ودخول جنته لو تاب وأناب.

فلو علم الكافر أن باب التوبة مفتوح، وأن رحمة الله وسعت كل شيء، لأسرع إلى التوبة ولم يستمر في كفره.

ففي الحديث: الحث على الجمع بين الخوف من عقاب الله والرجاء في رحمته.

والحث على التوبة والابتعاد عن الذنوب والحذر من الاستهانة بالذنوب والمعاصي.

وبيان سعة رحمة الله التي تشمل كل شيء، حتى الكافر إذا تاب فإن الله يتوب عليه.

والتحذير من اليأس من رحمة الله وهو من كبائر الذنوب.

فالحديث يحقق التوازن في نفس المسلم بين الخوف والرجاء.

بأن يستحضر: عظمة الذنب وعظمة المغفرة. فيدعو ربه خوفًا وطمعًا: قال الله جل وعلا: «تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» (السجدة:١٦)، وقال: «وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ» (الإسراء:٥٧).

أما حديث عمر: قوله: (قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي): هذا السبي هو سبي هوازن.

قوله: (فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي): أي تهيأ لأن يحلب، وثديها بالرفع ففي رواية الكشميهني بالإفراد وللباقين "ثدياها" بالتثنية.

"تسعى" بفتح العين المهملة من السعي وهو المشي بسرعة. وفي رواية مسلم: "تبتغي" من الابتغاء وهو الطلب.

قوله: (إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها). ولمسلم: "إذا وجدت صبيًا أخذته فأرضعته فوجدت صبيًا فأخذته فألزمته بطنها": وعُرف من سياقه أنها كانت فقدت صبيها وتضررت باجتماع اللبن في ثديها، فكانت إذا وجدت صبيًا أرضعته ليخف عنها، فلما وجدت صبيها بعينه أخذته فالتزمته.

قال الحافظ: ولم أقف على اسم هذا الصبي ولا على اسم أمه.

قوله: (أترون)؟ بضم المثناة أي أتظنون؟

قوله: (قلنا لا. وهي تقدر على أن لا تطرحه): أي: لا تطرحه طائعة أبدًا.

قوله: (لله) بفتح أوله لام تأكيد، وصرح بالقسم في رواية الإسماعيلي فقال: والله لله أرحم.

قوله: (بعباده) الظاهر: المؤمن والكافر. لكن ورد ما يبين أن المراد بالعباد هنا من مات على الإسلام، وهو ما أخرجه أحمد والحاكم من حديث أنس قال: "مر النبي -صلى الله عليه وسلم- في نفر من أصحابه وصبي على الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، فقال: ولا الله بطارح حبيبه في النار"

فالتعبير بحبيبه يُخرج الكافر.

قال ابن أبي جمرة: لفظ العباد عام ومعناه خاص بالمؤمنين، وهو كقوله تعالى: «ورحمتي وسعت كل

Upload by : altawhedmag.com

شيء فسأكتبها للذين يتقون»؛ فهي عامة من جهة الصلاحية وخاصة بمن كُتبت له.

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها فالله -سبحانه وتعالى- أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة.

هل الرحمة مخلوقة؟ أم أنها من صفاته تعالى؟

قلنا من قبل: إن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: رحمة ليست مخلوقة، تضاف إلى الله إضافة الصفة إلى الموصوف، ورحمة مخلوقة تضاف إلى الله تعالى إضافة المفعول إلى فاعله، ومنها الرحمة المذكورة في الحديث.

قال ابن القيم: "اعلم أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله. والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها. فمن الأول قوله في الصحيح: "احتجت الجنة والنار"، وفيه: "فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء" رواه مسلم، وأحمد.

فهذه رحمة مخلوقة، مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة؛ لأنها خلقت بالرحمة، وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض"، ومنه قوله تعالى: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً»، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة «وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته».

هل دخول الجنة برحمة الله أم بالعمل الصالح؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

وهذا لا يعني أن الأعمال ليس لها قيمة ولا تأثير في دخول الجنة. قال الله تعالى: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» «الزخرف:٧٢»؛ وقال: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «الواقعة: ٢٤».

والجمع بين هذه الآيات والحديث أن الجنة ليست ثمنًا وعوضًا للعمل، ولكن العمل سبب لدخول الجنة، وإنما يدخلها من يدخلها برحمة الله إذا أخذ بالسبب الذي جعله الله سببًا لدخولها، فإن رحمة الله لا ينالها إلا من اجتهد في طاعة الله وأحسن العمل: قال تعالى: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» «الأعراف:٥٦»، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «البقرة:٢١٨».

قال ابن تيمية: "وقوله صلى الله عليه وسلم: لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، لا يناقض قوله تعالى: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»؛ فإن المنفي نفى بباء المقابلة والمعاوضة، كما يقال: بعت هذا بهذا، وما أثبت: أثبت بباء السبب، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سببًا للجزاء؛ ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه، فهو ضال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل أحد الجنة بعمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" وروي "بمغفرته".

وقال ابن باز: فالأعمال الصالحة هي أسباب دخول الجنة، كما أن الأعمال الخبيثة هي أسباب دخول النار، والحديث يبين أن دخولهم الجنة ليس بمجرد العمل، بل لا بد من عفو الله ورحمته سبحانه وتعالى، فهم دخلوها بأسباب أعمالهم، ولكن الذي أوجب ذلك رحمته سبحانه، وعفوه ومغفرته.

نسأل الله أن يشملنا برحمته الواسعة، والحمد لله رب العالمين.

Upload by : altawhedmag.com